العقدة الاولى التي كانت تحزّ في قلبه هي عقدة الحياة. واذا قلت « الحياة » وجب عليّ في الحال ان اميّز بين معنيين منفصلين لهذه اللفظة. فثمّت « الحياة » بمعناها الروحي الشخصي الكياني. هذا هو المعنى الذي عناه شكسبير وغرته مثلًا عندما استعملا هذه اللفظة ، وهذا هو المعنى الذي قال به ارسطو عندما اكّد ان الحياة الحقة انما تنحصر في الله وحده . اما الحياة عند برغصون فلها مفهوم آخر يختلف كل الاختلاف عن هذا المعنى الروحي. تتركب « الحياة » البرغصونية من عنصرين مختلفين: العنصر الاول هو ما يقوله علما البيولوجيا والسيكولوجيا الايجابيان بشأن الحياة ، والعنصر الثاني هو ما يستخرجه برغصون نفسُه من مشاهدة ذاته وتحليل حالاته النفسية المباشرة. واذن المصدران الأساسيان لمشكلة برغصون الاولى هما علم الحياة بمعناه الاوسع والتحليلات السيكولوجية الانعكاسية .

من هذين المصدرين يخلص برغصون الى تصوير خاص لكُنه الحياة . الحياة بحسب هذا التصوير هي نزوع مستمرّ وثّاب الى الخلق والابداع . ولذلك كل تعليل للتطوّر البيولوجي قائم على الميكانيكية ، اي على اعتبار عوامل الأقدار المتخبطة والصدفة العمياء أنها هي العوامل الحاسمة في تسيير التطور ، وكل تعليل قائم على الغائية ، اي على اعتبار ان الحياة تتطوّر وفقاً لغايات واضحة تضعها امامها ، هذان التعليلان للتطور يقصران كل التقصير في نظر برغصون عن حقيقة التطور . فبدلًا من أن تكون الحياةُ رهنَ الصدفة والاقدار ، كما يزعم الماديّون ، هي في حقيقتها مبدأ ايجابي يكافح المادة ليل نهار بغية التحرّر من عبوديتها. وبدلًا من أنْ تكبّل الحياةُ نفسها بصور واعية ترمي الى تحقيقها ، كما يذهب اليه [illegible] ، هي في ذاتها قوة مندفعة لا تستطيع ان تعيّن من الآن جميع ما ستفضي [illegible] . سرّ الحياة اذن يقع في دافع الحياة ، في اعتزامها على تذليل كل عقبة تعترضها في تفتحها الزمني ، في تطوّحها الحرّ نحو المستقبل المفتوح ، في هذا الزخم المريع الذي تفتّح في التاريخ عن هذه الألوان اللامتناهية من النبات والحيوان الى ان استقر اخيرًا فيّ وفيكم وفي برغصون نفسه ، اي في الانسان ، حيث الخلق والابداع يفعلان بحرية لا عهد للحياة بها من قبل. من كل هذا ينتج معنا أننا لا نكون انفسنا ولا نعرف الحقيقة ولا ننفذ الى سر الوجود إلّا اذا اندفعنا

بسذاجة طبيعية بريئة مع هذا الزخم الحيوي الوثاب ، خالقين ما سمحت لنا الظروف بخلقه ، مُبدعين ما كان كامناً في طيات الحياة التي نحملها .

في هذه الفكرة الأساسية ، التي استخلصها برغصون من علمَي البيولوجيا والسيكولوجيا ، ومن مشاهداته الانعكافية لنفسه ، تتصور وتتبين جميع فكره الأساسية الاخرى. فالبصيرة او الحدْس هي مقدرتنا على الرجوع المباشر الى تيار الحياة الخلاق واشتراكنا في عملية خلقه. ونحن ليس بوسعنا ان نقدرَ الاشياء قدْرًا كلياً ، ولا ان نشعر بالحياة الحرة تنبضُ في كل شيء في العالم ، نحن لا نستطيع ان نعي الماضي المتراكم المخبوء في كياننا ، إلّا عن طريق البصيرة. وبما ان البصيرة تقودنا هكذا الى حركة الحياة المبدعة فهي مفتاح الحقيقة الاوحد. اما العقل فلا يستطيع ادراك الحقيقة لانه لا يُكبُّ إلّا على الاجسام الجامدة ولا يعقل الا فكرًا غير متحركة ولا يفهم إلّا ما ينطبقُ على هذا الفضاء المتقطع الميت ، بينما الحقيقة هي في الحياة والحركة والزمن . الحياة تُحيا ولا تُعقل ، تبدع ولا تدرَك ، تنطلق حرة نحو المستقبل دون ما تبعة لعقل يُرشدها او وعي ينير لها السبيل . الحياة لا تُفهم ، اي لا تكون ، إلّا بالبصيرة ؛ والحيّ هو من يخلق ويُبدع ، لا من يتفلسف ويفكر .

على هذا المنوال تنتظم جميع عقائد برغصون الأساسية ضمن اطار الحياة . ولو كان لدي مُتسع من الوقت لحاولت ان احبُك فكرةَ الزمن والذاكرة ، فكرةَ الماضي والمستقبل ، فكرة التغيّر المطلق وما يستلزمه من ضرورة الحرية والاختيار ، فكرة الخلق الروحي ، فكرة البقاء والتراكم — لو كان لدي متسع من الوقت لنسجتُ جميعَ هذه الفكر البرغصونية الأساسية في نظرة نظامية واحدة .

اما مركز برغصون في العالم الفلسفي فلا اظنني مغالياً اذا زعمت أنّ هذا الراحلَ العظيمَ اعمقُ جميع الفلاسفة الاوروبيين المعاصرين أثرًا واوسعهم شهرة في الاوساط الفلسفية الحرّة. ويشهد بذلك ائمّةُ الفلاسفة الانكلوسكسونيين . هذا وليم جايمس مثلًا يقول في كتابه « كون متعدّد » إن برغصون احدث في

نفسه ثورةً اساسية ادّت به الى انكار مزاعم العقل في البلوغ الى الحقيقة ، وان الانسان بعد قراءة برغصون تعتريه رعشة من الحرية الروحية لم يكن له عهد بها من قبل. ويستطرد جايمس الى القول بان كل صفحة من صفحات برغصون تفتح امامنا افاقاً جديدة ، فكلامُه « كنسة الصباح وكتغريد العصافير »[1]. وهذا صموئيل الكسندر يقول في كتابه « الفضاء والزمان والألوهة » إنه ما من احد خدم الفلسفة كما خدمها برغصون في تأكيده على ضرورة اعتبار الزمن حقيقة نهائية[2]. والجنرال سمطس ، الرئيس الحالي لوزارة جنوبي افريقية ، يقول في كتابه « الكلية والتطوّر » إنّ برغصون المعلّ فلاسفة التطوّر واشدّهم تأثيرًا في عصرنا هذا[3]. وفي كتابه « الفلسفة والحضارة » يقول جون ديوي إنّ كلّ واحد يقرأ اليوم برغصون[4]. واخيرًا يعترف استاذي هويتهد في مقدّمة اهم مؤلّفاته « العملية والحقيقة » بانه مدين في الدرجة الاولى لبرغصون[5] ، ومن يدرس هويتهد يشعر بتأثير برغصون في كل صفحة من صفحاته على وجه التقريب .

ويسرني بهذه المناسبة أنْ انقل اليكم خبرًا كتبياً وهو ان الترجمة الرسمية المعتمدة في اللغة الانكليزية لاشهر كتب برغصون ، اعني « التطوّر الخلّاق » ، قام بها رجل اسمه ارثر متشل تحت اشراف برغصون ووليم جايمس في آن واحد. وقبل رجوعه الى اميركة ودراسته للفلسفة في جامعة هارفارد وقيامه بهذه الترجمة ، كان السيّد ارثر متشل معلماً بسيطاً للغة الانكليزية في جامعتنا هذه ، هنا في الدائرة الاستعدادية ، بين سنة ١٨٩٤ وسنة ١٨٩٦ .

(١ William James, *A Pluralistic Universe*. New York, 1928, pp. 265, 266, 219

(٢ Samuel Alexander. *Space, Time and Deity*. London, 1920, vol. I, p. 150

(٣ General Rt. Hon. J. C. Smuts, *Holism and Evolution*. New York, 1926, p. 92

(٤ John Dewey, *Philosophy and Civilization*. New York, 1931, p. 202

(٥ Alfred North Whitehead, *Process and Reality*. New York, 1930, p. VII

اما اثر برغصون في الفكر العربي فإخاله اثرًا غير مباشر ، ذلك لاننا نقرأه في اللغتين الفرنسية او الانكليزية ، ولأن مصنفاته لم يترجم بعدُ واحدٌ منها الى اللغة العربية . ولا اظن دراسةً واحدةً وافية ظهرت بعد في لغتنا عن هذا الفيلسوف ، هذا اذا استثنينا بضع مقالات مستعجلة نُشرت في بعض المجلات هنا وفي مصر . واذا ذكرنا ان مؤلفات برغصون والدراسات التي أُلفت في برغصون في اللغات الاوربية تُحصى بالمئات ، واذا ذكرنا كذلك ان برغصون ليس بالفيلسوف الوحيد الذي طبع الفكر الاوروبي والذي لا نكاد نعرف عنه شيئاً ، ادركنا مقدار الجاهلية اللامتناهية التي نتخبط في ظلماتها وعظمَ العمل المنتظر من كلّ طالب للحقيقة منا في المستقبل . ومع ان اثر برغصون المباشر في الفكر العربي يكاد يكون عدماً فاثرُه غير المباشر واضح في بعض الكتاب والشعراء الرومنطيقيين الثائرين على العقل واحكامه ، المنفصلين عن التراث الفلسفي ، المؤلهين للغريزة والبصيرة والعفوية وكلّ ما يمتّ الى العاطفة والشعور الذاتيين .

ومع ان برغصون لم يبحث في نظامه الفلسفي امورًا احبُها في غاية الأهمية ، ومع انه لم يؤلف فلسفتَه من داخل التراث الفلسفي الايجابي ، فاظن اننا نستطيع في العالم العربي ان نستفيد من حكمته فوائد ثلاث ، اكتفي بمجرد الاشارة إليها :

اولًا تأكيدُه على حقيقة الروح وتعاليها على المادة ، وذلك في وجه المادية والميكانيكية الطاغيتين على العالم . يقول برغصون إن المادة وما يمتّ اليها كيان منحطّ بالنسبة الى الروح النزاعة المبدعة ، واذن من يتجهْ ماديًا فهو متجهٌ آخرَ الامر نحو الفناء والعدم ، مهما تفنن في ارجاء اجله المحتوم . اما من يتجهْ نحو الروح الوثابة ، الروح التي دأبُها محاربةُ المادة بجميع مظاهرها ، فهذا لا خوفَ عليه ولا خطرَ على تدهوره .

ثانيًا تأكيدُه على حقيقة الزمن وانه لا يقع في تسلسل الاشياء تسلسلًا خارجيًا ، بل في انبثاقها انبثاقاً داخليًا تراكميًا . الزمن هو نمو الحياة المتواصل . الزمن هو الروح الخالقة المبدعة ، لا ما تخلق وتُبدع . الزمن هو الانطلاق الحرّ

نحو المستقبل ، لا الحنين الرجعي للماضي . والماضي ذاته ليس ماضياً الّا بقدر ما هو حيّ ينبض في كيان الحاضر المندفع نحو المستقبل . واذن الماضي انما يوجد لخدمة المستقبل عن طريق الحاضر .

ثالثاً اذا كان جوهرُ الاشياء يقع في عمليّة تغيّرها فكل من يحارب التغيُّرَ الصحيح ينصبُ نفسَه عدوّاً لجوهر الاشياء ، وجوهر الاشياء بالطبع لا يقهر ، لانه هو الحقيقة . وحريّ بنا نحن في العالم العربي ان نتعلم امثولة التغير ، وان نؤمن بانا بالفعل قادرون على تغيير انفسنا ، وان قرارات حياتنا الهامة لم تُتخذ كلُها بالنيابة عنا في الماضي ، وان خطوط كياننا لم تُكتبْ كلّها منذ الازل . برغصون يعلمنا أنَّ الحرية من خصائص كياننا الطبيعي ، فـاذا اردنا نستطيع نحن ان نقرّر مصيرَنا بايدينا .